

1616 - قراءة في كراسات التطويب (بخيب محفوظ)

مقدمة:

لا أستطيع أن أدعى أنني ضجرت أو سئمت أو أنهكت من مواصلة قراءة هذه التدريبات هكذا، لكنني أكاد أجزم أن احدا لن يقرأ ما أكتب كما أريد، وخصوصا إذا كتب له أن يصدر في كتاب، هل يا ترى لأنه كثير كثير (قلت إنه حوالى الألف صفحة، ونحن لم نصل بعد نشرة اليوم إلا إلى صفحة 59)؟ أو لأن كثيرا من التدايعات ليست لها علاقة بمحفوظ مباشرة بقدر ما لها علاقة بمن يقرأه (أنا)؟، أم لأن المفروض أنه أن الأوان للانتقاء أو للتوقف؟ سبق أن طرحت مثل هذه الأسئلة من قبل، وطلبت الاستهداء برأى الأصدقاء المتابعين، ولم يصلنى شيء محدد يهدينى إلى قرار محدد

أشعر أنني مستمر بالقصور الذاتى!!

لا ليس هذا صحيحا، فمن حق محفوظ أن يكرر ما شاء فى تدريباته بلا إضافة جديد، وربما يبدو أن ذلك قد كان أسهل عليه - تدريبييا- وقد اشرنا إلى ذلك فى البداية ونحن نلاحظ كيف بدأ فى الصفحة الثانية فى التدريب، ومازال يبدأ (مثل اليوم) بكتابة اسمه واسم كريمته، ثم إن القراءة بما تثيره من تداعيات تحاول أن تتجاوز التكرار بشكل أو بآخر .

لا بد أن أعترف أنني أتعلم مما تثيره فى كتاباته هذه مما لم يكن يخطر على بالى أن أتعلمه يوما، طبعاً يتم ذلك بفضل الاستعانة بسيدنا جوجل رضى الله عنه، الذى أقر وأعترف أنه لولا كرمه وجاهزيته ما ظهر هذا العمل بهذه الصورة أبداً كما أنى أعترف أن ما أتعلمه - فى هذه الخبرة هكذا لا يقتصر على المعارف والمعلومات، بل يمتد إلى الألحان والتاريخ والمناسبات؟

ثم ربما الاله من كل ذلك أننى أكاد - أو ربما فعلا - أشعر بوجوده شخصيا معى

أكاد أجزم أن احدا
لن يقرأ ما أكتب
كما أريد

أتخط موقفاً ناقداً
رافضاً فح كثر
من الأحيان أن تكون
الكلمات المكتوبة،
والمواثيق المهلنة
المصممة بالقانون
هك غاية ما نرجو

عيانا بيانا كل أربعاء أو ثلاثاء وأنا أعد لنشرته هذه اليوم الخميس ، أليس هذا دافع كاف لأواصل الألف صفحة، ولو صفحة صفحة، ربنا يسهل!!
 ما علينا، مرة أخرى لن ألزم نفسى بنظام معين ما دامت المسألة تبينت أن أهم دافع للاستمرار هو حضوره شخصيا الذى يمكن أن يكون جزاء كافيا بغض النظر عن المنهج أو النشر، وبالتالي :

• قد أعود فأكتفى فجأة بتدريب ورد فى صفحة واحدة، بها أقل "الجديد"

- وقد أجمع - مثل الأسبوع الماضى - عدة صفحات معا
- وقد أشير إلى ما سبق نشره بروابط محددة
- وقد أكتفى بالتعليق الموجز جدا على الجديد، أو ما أعتقد أنه جديد، تاركا الإشارة للعلاقات والتشابهات للدراسة الشاملة التى بدأت أشك أنها ستصدر فى حياتى

• أو قد يحدث ما لا أعرف مما قد يجذ من احتمالات

المهم ألا أتوقف؟ أو ماذا ترون؟

ص 59 من الكراسة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

نجيب محفوظ

أم كلثوم نجيب محفوظ

فاطمة نجيب محفوظ

من جد وجد

سيادة القانون هي الحضارة

لكل مجتهد نصيب

لا يأس مع الحياة

لا طعم للحياة بلا أمل

نجيب محفوظ

199/3/29

القراءة

نبدأ من الجديد:

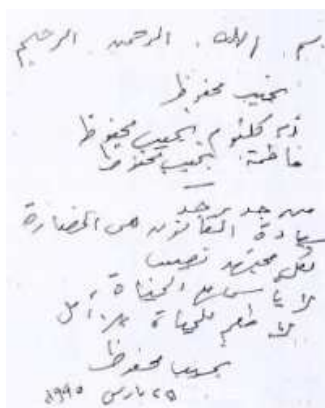
النص من التدريب: "سيادة القانون هي الحضارة"

سبق أن كتبت فى بداية البداية تعليقا على نص من التدريب وذلك من صفحة

التدريب رقم (5) نشرة 14-1-2010 العدد: 867 يقول:

البشر لا يكونون بشوا
 بالاحترام المطلق
 للقانون على حساب
 علاقاتهم الأعمق
 والأرق، وإنما
 يكونون كذلك
 "حين تقوم المودة
 بين الناس مقام
 القانون"

المدينة، وما تمتعت
 به واكتسبته من
 أدوات هذه
 المسئولة عن تكوين
 المدنية التكنولوجية
 موادقة لها هو
 حضارة، أحد أن
 العمران



يعجبني الصدق في القول، والإخلاص في العمل، وأن تقوم المودة بين الناس، مقام

القانون

وقد كتبت آنذاك (لاحظ أن ذلك كان منذ عامين!!) كتبت بعض ما جاءني مما دار بيني وبينه حول ما يتعلق بما كتب، أشرت إليها في تلك النشرة أقتطف منها ما يلي: "أنا أتخذ موقفاً ناقداً (رافضاً في كثير من الأحيان) أن تكون الكلمات المكتوبة، والمواثيق المعلنة المدعومة بالقانون هي غاية ما نرجو، أو كل ما يمكن، لتنظيم تواجدها معنا، وكان يكرمني الأستاذ مبدئياً بقبول تحفظاتي، لكنه يبادر بقرص أذني حين أعجز عن طرح بديل أفضل، وينبهني أن "أفضل الأسوأ هو الأفضل"، وأنتبه بعد ذلك أن هذا قد يصح على مستوى تنظيم المجتمع، وتشكيلات السياسة، أما في المجال الفردي، والشخصي، والحميمي بين الناس، فهذا هو يأمل "أن تقوم المودة بين الناس مكان القانون"، ياه!! يا شيخى الجليل، لم لم تقل لي ذلك أثناء حدة نقاشنا، كم دافعتُ أنا عن العرف ومجالس التحكيم الأفضل من دور القضاء، وعلاقة الطبيب بمريضه الأقوى من أى تنظيم قانوني أو تأميني أو حقوق إنساني، لكن يبدو أن هذا مستوى، وذلك مستوى. البشر لا يكونون بشراً بالاحترام المطلق للقانون على حساب علاقاتهم الأعمق والأرقى، وإنما يكونون كذلك "حين تقوم المودة بين الناس مقام القانون"، لاحظ أنه لم يقل: حين تحل المودة بين

الناس محل القانون!!!!

انتهى المقتطف

هنا في نشرة اليوم عن صفحة التدريب رقم (59) يأتي فيقول ببساطة ومباشرة:

"سيادة القانون هي الحضارة"

ذات مرة (أو ربما مرات متلاحقة) رحلت (رحنا) نناقش معه الفرق بين المدنية والحضارة أصررت أنا على أن المدنية هي في الأشياء والعمران والأدوات، أكثر مما هي في الإنسان، أما الحضارة فهي في البشر والثقافة والإبداع، واختلافنا، ولم يتحيز الأستاذ لرأى بذاته، وأذكر أنني ذكرت له ما سمعته من استاذي محمود محمود شاكر في صدر شبابي (18 سنة) من أن الحضارة تتبع من وعى البشر حين تسمح لهم الظروف بخبرة فردية فجماعية تخلق حالة من التقشف النفسي الباحث الكاشف ثم التغيير. (وإن كان المرحوم الأستاذ شاكر لم يتذكر هذا القول بنصه حين ذكرته به بعد أربعين سنة)، وكان تعليق شيخى محفوظ على اختلافنا حول هذه القضية أنه "لو كان يقرأ لعاد الليلة إلى الموسوعة البريطانية يستفتيها.

جاء ذكر الحضارة هنا بأنها سيادة القانون، هكذا، كأنها تعريف محكم موجز مغلق، أنا آسف فالنص يقول إن "سيادة القانون هي الحضارة" وصلنى الفرق فقط أثناء مراجعة

هل مجرد اكتساب
أداة العمران هو أمر
كاف للإنشاء
حضارة، أم أن الأمر
أصبح أكثر تعقيداً
وأعقد إشكالية؟

لا نحاول أن ندخل
فكراً لجهة الفخر
والهجاء، خصوصاً
إذا اقتصر فخرنا
على الماضي، ثم
توجه هاجوناً إلى
منتصر يتفوق علينا

المسودة الآن فاختلط الأمر على أكثر من ذي قبل، إذ هل ياترى حين يسود القانون وتتحقق الحضارة ويرتقى بها البشر، يمكنهم حينذاك أن يستغنوا عن القانون حين تقوم المودة بين الناس مكان القانون؟! كما قال شيخى قبلا؟؟

الحل مرة أخرى هو ضرورة التمييز بين الأمل فى علاقات إنسانية بين البشر أرقى فأرقى، وأنشط فأنشط، وأبدع فأبدع، علاقات تحافظ على الدفع الحضارى باضطراد بأقل حاجة للقانون وبين تنظيم الحقوق والواجبات للجماعة بنصوص قانونية محكمة.

نلاحظ هنا أن الأستاذ كتب "سيادة القانون"، وهى غير تطبيق القانون، القانون الذى يسود داخلنا هو الذى يصنع الحضارة حتى تصبح سيادته فينا فردا فردا هى مرادفة لتحضرنا، وهو القانون الذى يمكن أن يكون كل منا "على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره"، وهو الأقرب إلى ما وصلنى من استاذى الأول محمود شاكر، وبما عبرت عن ما وصلنى منه بالتقشف النفسى النشط، هذا القانون هو الذى إذا ساد يعطينا فرصة للمراجعة والنقد والتقشف النقى فالإبداع معا فالحضارة.

أذكر أن هذا النقاش قد جعلنى أقبل التحدى وأعد الاستاذ أن أكتب وجهة نظرى (بفضله) فشجعتى وراح يتابعنى ويطالبنى بها بين الحين والحين حتى كتبتها فى سلسلة من خمس مقالات متتالية فى جريدة الوطن السعودية، أبدأ بنشر الأولى منها وقد نشرت بتاريخ 2000-11-27.

المقال:

"تستعمل هذه الأيام كلمتى الثقافة والحضارة بوفرة وافرة، وإلى درجة أقل كلمتى: المدنية والعمران، لا نتوقف كثيرا عند المعانى المقصودة، ولا نتعمق بدرجة كافية فى التفرقة الواجبة.

يرجح أغلب المؤرخين والمفكرين أن المدنية، وماتمتعت به واكتسبته من أدوات هى المسئولة عن تكوين المدنية التى هى مرادفة - فى أغلب الأقوال والمراجع أيضا- لما هو حضارة، أى أن العمران، بمايقدم من فرص وخدمات وتنظيمات تقوم بها مؤسسات هو المسئول عن نشأة واستمرار الحضارات، فإذا صح ذلك تاريخيا ولغويا، وصحيح بعضه، فإننا لا شك نحتاج إلى وقفة مراجعة عصرية دقيقة، نقف فيها الآن متسائلين: هل يصدق نفس الأمر فى أيامنا هذه "هكذا" مباشرة؟ بمعنى: هل مجرد اكتساب أداة العمران هو أمر كاف لإنشاء حضارة، أم أن الأمر أصبح أكثر تعقيدا وأعد إشكالية؟ إن من أهم أدوات العمران الآن: الحصيلة العلمية المتاحة للشخص العادى، والحصيلة التكنولوجية فائقة المعاصرة الجاهزة لاستخداماته. فإذا يمكن أن نعمل بها دون أن نصبح مجرد صدى أو نسخة مكررة ماسخة؟

وجب علينا أن نذكر أنفسنا طول الوقت بالمحكات التى تجعل الوسائل (أدوات التمدن ورموزه) أكثر قدرة على إفراز إيجابيات الحضارة

إن الحضارة أساسا هى حضور وعكس بشرك مسئول، يصنع العمران ليحمر به الأرض لا ليتطاول فك البنيان

علينا أن نلاحظ ابتداء بعض ما يجرى عندهم دون تعميم: إن توفر الأداة العمرانية في أكثر مدنهم تمدنا وأوفرها تقنية ومعاصرة (نيويورك - لوس انجلوس مثلا) لم يعد كافيا لحسن استعمالها لصالح البشر، والخوف المحيط بنا هو أن نحذو حذوهم جملة وتفصيلا إذا لم ننتبه بالدرجة الكافية إلى سلبات تجربتهم، وفي نفس الوقت إلى إيجابيات عطاء أدواتهم.

نحن نتكلم بطريقة متواترة عن الدول المتقدمة والدول المتخلفة، ثم عن الشعوب المتحضرة والشعوب البدائية، ثم عن دول وشعوب العالم الثاني والثالث والرابع عشر، وقد زاد هذا الحديث بشكل متواتر حين بدأت بدعة النظام العالمي الجديد، ومن بعدها بدعة العولمة، ثم الشفافية وما إلى ذلك. نحن لا نشك في أن الدول المتحضرة هي كذلك (متحضرة) بالمقاييس السائدة، كما أننا لا نحاول أن ندخل في لعبة الفخر والهجاء، خصوصا إذا اقتصر فخرنا على الماضي، ثم توجه هجاؤنا إلى منتصر يتفوق علينا طول الوقت في كل المجالات المادية والظاهرة.

الوقفة التي أدعو لها تلزمننا أن نراجع الأمر لنرفض الترادف بين ما هو "مدنية" وما هو "حضارة"، دون أن نفرصهما فصلا تعسفيا. نؤكد مرة أخرى أن العمران بما يقدم من أدوات ومؤسسات هو المسئول عن نشأة واستمرار الحضارات. ومع ذلك فالمسألة ليست بهذه المباشرة ولا بهذه البساطة. لا شك أن الحضارة تحتاج إلى استعمال كل منجزات الإنسان في لحظة بذاتها في بقعة بذاتها، لكن مجرد وجود هذه المنجزات ليس كافيا، ولا هو الضمان الأكيد لإفراز حضارة لها ما يميزها ويحافظ عليها، بل إن بعض الحسابات والمتابعات الواعية تشير إلى أن وجود هذه الوسائل قد تنقلب على صاحبها إذا هو لم يحسن استعمالها، ولم يتهيأ لها بالقدر الكافي. أو إذا استمر التباهي بها في ذاتها دون أن يحرص على توجيه عاندها واختباره أولا بأول. إن هذا الخطأ هو الذي أدى إلى سقوط الامبراطورية الرومانية، وهو ما يهدد الحضارة الغربية حاليا. لهذا وجب علينا أن نذكر أنفسنا طول الوقت بالمحكات التي تجعل الوسائل (أدوات التمدن ورموزه) أكثر قدرة على إفراز إيجابيات الحضارة. وفي هذا نقول:

إن تطور البشر لا يقاس فقط بإخازات الصفوة فك مراكز البحث وعمروض المتاحف وبرامات النشر، ولكن لا بد أن يدخل فك التقييم والقياس نوعية تعامل الناس مع بعضهم البعض، وعمق مشاعر الأخوة الإنسانية التحد ترسك قواعد الحق الاجتماعي السليم

إن أدوات التمدن تصبح وسائل الحضارة حين تتوفر فيها الشروط التالية:

- (1) إذا كانت من نتاج صاحبها الذى يستعملها، وهذا لا يستبعد أن يكون من حق أى إنسان أن يستعمل وسائل ابتدعها غيره، لكن الفرصة تزداد حين ينتمى الإنسان إلى ما صنعت يده، فيشعر أنه أحق بأدائها، وأحرص على إيجابيات عطائها.
 - (2) إذا كانت هذه الأدوات متاحة لتكون فى أيدى الكافة. أى أنها لا تكون مجرد رمز طبقي قاصر على صفة بذاتها.
 - (3) إذا عاد عائد استعمال هذه الأدوات على دائرة أوسع فأوسع من ناس صاحبها، ثم راح يمتد إلى الأبعد فالأبعد حتى يشمل الناس جميعا.
 - (4) إذا طوع مستعمل الأداة أداؤه لخدمة غايته الإنسانية التى أفرزها وعيه المتكشف، ويقظته النبيلة.
- قل هذا على الكهرباء والنفط والذرة والكتابة والحاسوب والإنترنت والفضائيات. وما شئت من أدوات هانت أم عظمت.
- أما إذا كانت الوسيلة مستوردة، أو مقلدة، ولم يستطع مقتنيها أن ينتمى إليها فتتنمى إليه، وإذا اقتصرت الوسيلة على فئة ظنت أنها مزية لها دون سائر البشر، وإذا كان عائدها لا يصب إلا فى مزيد من تميز صاحبها دون العالمين، وإذا انفصلت عن صاحبها فقادته إلى حيث لا يدري دون اختيار واع، إذا حدث كل هذا أو أغلبه، ومهما بلغت مهارة الأداة أو تطاول البنيان، فحدث عن سلبات التبعية لا عن فرص الحضارة. بل حدث أيضا عن احتمال الضرر من خلال لبس ثوب المدنية مع الإبقاء على معالم التخلف.
- خلاصة القول:** إن الحضارة أساسا هى حضور وعى بشرى مسئول، يصنع العمران ليعمر به الأرض لا ليتناول فى البنيان، إن مثل هذا الوعى النبيل المتكشف إنما يتجلى فى فعل ظاهر فى ذاته ممتد فيمن حوله، يعلن تفوق الإنسان على تاريخه الحيوى والبشرى على حد سواء.
- إن هذا الموقف النقدي اليقظ يلزمنا أن نربط ما هو مدنية لكى تكون حضارة بشروط التأكد من أن وعى الإنسان الذى أتيحت له فرص امتلاك أدوات العمران هو قادر على حمل مسئولية استعمال هذه الأدوات لدرجة تسمح بممارستها فى تعمير الأرض - لا خرابها - وتطور البشر - لا تشويههم أو تآثرهم وتمزقهم، إن تطور البشر لا يقاس فقط بإنجازات الصفة فى مراكز البحث وعروض المتاحف وبراءات النشر، ولكن لا بد أن يدخل فى التقييم والقياس نوعية تعامل الناس مع بعضهم البعض، وعمق مشاعر الأخوة الإنسانية التى

إن تأسيس حضارة بديلة هو أمر وارد، شريطة أن نخلق نحن معالمها من خلال ممارسة أحرار، وإن كانت بنفس الأدوات

علينا كلما امتكنا وسيلة جديدة أن نحسن ملأها بما يميزنا، ثم نعدل خطانا فى كل مجال من أول التنمية الكمية حتى تنوع الإبداع

ترسى قواعد العقد الاجتماعي السليم، وكذلك نوعية ممارسة القوانين العرفية التي تحكم الفعل اليومي. بل إن هذا الوعي (الحضاري) قد يتم ويتنامى مهما تواضعت أدوات المدنية المتاحة.

إن نظرة إلى ما هو نحن، وإلى ما حولنا لا بد أن تؤكد فائدة هذا التمييز، بحيث يمكن بقليل من التباديل والتوافق إعادة تقسيم عالما المعاصر حسب علاقة المدنية بالحضارة بطريقة أخرى نورد أمثلة لها فيما يلي:

1- مدنية فائقة وحضارة مبعثة أو مترهلة أو متراجعة: وهو ما

نجده في دول فائقة التقدم واضحة القوانين صلبة المؤسسات، تفيض بالجديد المحكم المنمط بشكل عام، يتبدى ذلك في دور العلم، ومعطيات الصناعات، ومعارض الفنون، ومراكز الأبحاث، ولكن ما أن تنتقل إلى الشارع بعد الساعة أو الثامنة مساءً في كثير من مدنها حتى نجد الأمر مختلفاً، فالناس تتلفت، وتخاف أن تحيي بعضها بعضاً، وتغتصب وتنتهك، وثمة قوانين تحتية تتحكم في المشاعر والعلاقات والحياة يمكن أن تشمل: (مثلاً) قانون "الرعب والقتل"، و "قانون الكر والفر" و "قانون البقاء للأسرع" إلخ.

2- مدنية وافرة حديثة مستوردة، و حضارة زائفة ومقلدة: وهو ما

نجده في دول حديثة التمدن و الثراء حصلت على كل وسائل الدول المتقدمة السالفة الذكر، وأكثر، فرصت الشوارع، وأرست وسائل التوصيل والمواصلات، وخطت المدن ووفرت كل وسائل الحياة الأحدث لأغلب أفراد شعوبها، لكنها لا تضيف، ولا تبدع، ولا تطور، ثم أصبحت هذه الأدوات في هذه المجتمعات هدفاً في ذاتها لذاتها وليست وسيلة لإطلاق القدرات واختصار أوقات المعاناة لملئها بالإبداع والموضوعية. أي أنها تمتلك وسائل التقدم والمدنية، لكنها توظفها في بؤر متناثرة، تستعمل من الظاهر فيما يشبه البحث العلمي ومزيد من التمدن المتمثل في التراكم الكمي لمزيد من أدوات البناء وليس العمران.

3- حضارة واعدة متوثبة، على الرغم من أدوات المدنية

المتواضعة: هذا ما يمكن أن نتصور توفره في مجتمعاتنا إذا حرصنا على الحفاظ على التقاليد الإيجابية والأخلاق الغيرية، عرفاً و تديناً وإيماناً، بهذا تصبح هذه المجتمعات العريقة والمتواضعة قادرة على أن تطرح بدائل حضارية حقيقية حتى لو لم تمتلك ما يكفي من أدوات. بل إنها يمكن أن تخلق أو تطور ما يصلها من أدوات لخدمة موقفها المتميز، لا المقلد. هذه المجتمعات قد توصف بالبدائية والقبلية إذا لم ينتبه الناظر أو

ينتبه أهلها إلى ما يعنيه الجانب الإيجابي من هذه القلبية، وخاصة متانة العقد الاجتماعي، وإيجابيات العرف النافع والخلق السليم.

فإذا ما هبئ لبعض هذه المجتمعات أن تمتلك مزيداً من أدوات التمدن والعمران، فإنه يمكن أن تسرع خطاها في اتجاه ما حافظت عليه من إيجابيات موقعها المتميز والملتزم بالتغيير الكيفي وليس لمجرد الفرحة بالتراكم الكمي. إن المقياس الآمن لو صح مثل هذا التوجه هو أن نختبر عائد ما نمتلكه من أدوات معاصرة، لا بالاستزادة منه فحسب، بل بقياس آثاره وتطويره على هذا الأساس أولاً بأول.

إن تأسيس حضارة بديلة هو أمر وارد، شريطة أن نخلق نحن معالمها من خلال ممارسة أخرى، وإن كانت بنفس الأدوات إذا كان لنا أن نستعيد دورنا في ريادة المسار الحضاري، فإنه لا يكفي ترديد استعادة أمجاد أجدادنا، كما أنه لا يمكن أن ننجز شيئاً حقيقياً دون امتلاك أحدث أدوات العمران وأكثرها فاعلية. ثم إن علينا كلما امتلنا وسيلة جديدة (سواء كان قمراً صناعياً أم محطة فضائية أم موقعا على الإنترنت) أن نحسن مألها بما يميزنا، ثم نعدل خطانا في كل مجال من أول التنمية الكمية حتى تنوع الإبداع.

إن كل ذلك يتطلب منا أن نحدد معالم السلوك الحضاري كما ننتصروها، الأمر الذي يحتاج إلى تحديد الخطوط العريضة بقدر ما يتطلب الاحتكام إلى محكات عملية كما تتجلى في الفعل اليومي".

وبعد:

شكراً يا شيخنا الغالي فهذا كله من وحيك، وبفضل تشجيعك

أما ما جاء من جديد آخر في هذه الصفحة مثل: "من جد وجد"، ولكل مجتهد نصيب" ثم "لا يأس مع الحياة"، "ولا طعم للحياة مع الأمل"، فأذكر أنني ناقشته حين وردت بألفاظ أخرى في قراءة الصفحات الأولى وأنا أعجب فأفرح بخروج شيخنا من هذه المحنة القاصمة، بكل هذا التحدي الأمل دون يأس، نعم دون يأس، وكيف أنه ظل محتفظاً بالقدرة على تفجير ينبوع الأمل للحفاظ على زخم الحياة الذي غمرنا كل أيامه وحتى الآن.

- برجاء مراجعة هذا الاعتراف ومقارنة سهولة واعتمادية ما أقوم به بموسوعية ^[1]

المرحوم "حسن الكرمي" صاحب برنامج "قول على قول" في إذاعة لندن **نشرة رقم**

العدد: 4 860 تدريبات بتاريخ الخميس 7-1-2010